الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٢ — ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

فهرس العدد

صفحة			
٧٨٦	القبلة عند الغدير	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ يوسف جوهر ...
٧٩٧	مال بلا عمل	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد الحميد حدي ...
٨٠٣	حادث والترشتاف	للقصصى الفرنسى موباسان	بقلم الأستاذ ناجى الطنطاوى ...
٨٠٨	« آما » و « فينايا كا » ...	للشاعر الهندى طاغور	بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيدى
٨١٠	خفية الاتهام	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
٨١٣	الفرباء الثلاثة	للكاتب الانجليزى توماس هاردى	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
٨٢١	آخر ليالى غرناطة	أقصوصة شرقية	بقلم الأديب محمد سعيد عامر ...
٨٢٨	صديق جديد	عن مجلة « تروستورى » ...	بقلم الأديب عمانوئيل بطرس ابرهيم
٨٣٢	كل لنفسه	للقصصى الكبير اسكندر دوماس الأب	بقلم الأديب عبد المنعم مرزاد ...
٨٣٦	الجندى الصغير	للكاتب الفرنسى جى دى موباسان	بقلم الأديب السيد محمد العزاوى

القبلة عند الغدير

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ يوسف جوهر

رفع وهو يرتدى ملابس الخروج فى الساعة الخامسة من الصباح « الفانلة » عن أعلى الجانب الأيمن من بطنه ، ونادى خادمه ، وسأله وهو يشير إلى ذلك المكان قائلاً : « يا عثمان . . . أترى هنا ورماً ؟ »

فأخذ الخادم النوبى يحدق فى بطن سيده متعجباً ثم هز رأسه سلباً

وكان الفتى ينتظر جواباً غير هذا ، فطلب إلى عثمان أن يدقق الفحص ، ويقارن الجانب الأيمن بالأيسر من البطن وينتبه هل هما متساويان فى الارتفاع والانخفاض ؟

فصدع الخادم بالأمر ، ومضى يلتهم بطن سيده بعينيه من جديد ، ثم ومض فى عينيه بريق الانتصار أن نظرته الأولى لم تخطئ . لا ورم هناك . وهز وجهه الأسود بالنفى بأكثر إصرار ! . . .

وكأنه لم يكن يعجب فوزى أن لا ورم هناك فاستجمع قواه وصفع الخادم على قفاه

كيف لا يكون هناك ورم ! إن الكبد يقع فى الجانب الأيمن من أعلى البطن . ولطالما سمع أن الغيظ (يورم) الكبد . وهو مغيظ . مغيظ ! إنه يحس أن كبده منتفخة بالغيظ كالإسفنجة ، متهرأة من الكمد المستديم . لو مست هذه الكبد أصبع ، أو رميت بنواة تمرة لسقط ميتاً ! . . .

فكيف لا يرى هذا الخادم الغبي الانتفاخ الناجم عن تورم كبده ! . . .

وأتم ارتداء ملابسه ، ونظر إلى وجهه فى المرآة وهم أن يبصق على الصورة التى بدت له فيها . لكنه خشى أن يراه خادمه ، فرد لعابه إلى جوفه ، وهو يقاوم شهوة تقديم هذه التحية الصباحية لمحياه فى المرآة . وأخذ ينظر إلى هذا «المحيا» كما ينظر الغريم إلى غريمه ! كان الغيظ قد طفح على سحنته ، وألقى الفتنة والشغب بين معارف وجهه حتى بدت كأنها طغمة متخاصمة .

أدهشه هذا المنظر ! ولم يتمالك أن ضحك ضحكة جوفاء صفراء ! أعبث الغيظ بوجهه كل هذا العبث ؟ وتألقت فى عينه دمعة وهو يضحك ...

وجلس إلى المائدة ينتظر ما يعده عثمان من شاى ولبن لإفطاره . ودخل الخادم فإذا بسيده يعقد « الفوطة » من وسطها ويجذبها من طرفيها . وتراجع . وقد أذهله أن سيده يلعب كما يلعب الأطفال ويعقد « الفوطة » .

وأفاق « فوزى » لنفسه وبه خجل أن يكون خادمه قد رآه . ثم اطمأن إلى أنه وإن يكن قد رآه فإنه لن يعرف ما يعنيه بعقد الفوطة وجذبها من طرفيها ، وكان « فوزى » يتصور وهو يصنع ذلك

أن « رقية » رئيسه فى هذه الخيبة ، وإن الفوطة تخنقه شيئاً فشيئاً وتوشك أن تريحه منه .

وعرف أنها « أحلام » ، وأن لا خلاص له من رئيسه ، وأن هذا الرئيس سيعيش وسيهلكه وشيكاً بتصرفاته التى تجرعه من الغيظ والكمد ما سيأتى على البقية الباقية من « كبده » ...

كان فوزى يعمل بفرع شركة من شركات التأمين على الحياة . وكان مقياس كفاءة الموظف عند الخواجة «عجان» وكيل الفرع قدرته على إغراء الناس بالتأمين على حياتهم . وكان معجباً بفوزى لفصاحته وذلاقة لسانه وقدرته على « السبك » . وكانت مصيبة الفتى ناشئة من هذا الإعجاب . فما يكاد الخواجه عجان يسمع عن رجل موسر فى الريف أو تاجر معروف حتى يبعث بفوزى إليه يعرض عليه فوائد التأمين ومزاياه .

والزبون المتلكئ فى دفع الأقساط ليس له إلا فوزى يحاوره ويداوره ويتعقبه ويحاصره ويسترضيه ويهدده حتى يؤثر راحة البال ويدفع « المتأخر » صاغراً . فإذا ما عاد فوزى غير موفق فالويل له . فإن الخواجه يهدر ويزمجر ويشتم ويلعن ويهدد بالويل والثبور . فإن أشفق الفتى من نتيجة منتظرة وأبى أن يذهب اعتبر «عجان» ذلك عصياناً يقابله بعصيان أشد هولاً ونكراً لأنه العصيان عن دفع المرتب آخر الأسبوع

لذلك لم يكن فوزى يعرف للراحة طعماً . إن مشاكل «عجان» لا حصر لها . لقد عمل فى الليلة الماضية حتى منتصف الليل وأنجز العمليات الحسابية وسوى الدفاتر بأمل أن يظفر فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد ، بالراحة . فيدور فى المدينة باحثاً عن النسيم العليل والقوام الرشيق ، وكان يمنى نفسه بنعاس عميق بعد الظهر عقب الجلوس إلى فرخة سمينة وزجاجة من النبيذ ، وهى أشياء ظل يحلم بها من زمن بعيد . لكن أحلامه انتهت كما كانت تنتهى دائماً إلى هذه الخيبة القوية . فقد دخل عليه الخواجة «عجان» يتقدمه كرشه ، وأخذ يسأله عن الصحة والأحوال ويتمنى له أطيب التمنيات ، فعلم أنها مقدمات التكليف بمهمة ثقيلة مضنية يجب أن يذهب إليها فى الصباح ، فلا نسيم عليل ولا قوام رشيق ، ولا فرخة سمينة ولا خمر ولا كأس ، وإنما هو الشقاء الأبدى فى رحاب الخواجة «عجان» . إنه يريد أن يستغل كل قطرة من وقته ومن عافيته ، وأحس أن ما بقى من كبده المتلظية فى مرجل الغيظ — قد طاب

ولم تكذبه ظنونه فقد حدثه الخواجة عجان وهو يربت على كتفه ويبتسم له ابتسامة مبطنة بالتهديد أن عليه أن يستيقظ فى الصباح فى الساعة الخامسة ويركب السيارة الوحيدة التى تذهب بعد الخامسة بقليل إلى قرية «السلاهيب» . فإن هناك رجلاً غنياً كتب إليه أنه يريد أن يؤمن على حياته وحياة ابنته والمسافة إلى «السلاهيب» ست ساعات فقط ، وعليه أن يكون السابق إلى توضيب الزبون فقد يكون مندوب الشركة الأخرى على علم فتخطف الصفقة .

كان فوزى يعلم أن المعارضة لا تجدى فترحم على تمنياته التى تخطرت فى رأسه ، ولم يحاول أن يتنصل من الذهاب ، بل حاول أن يتخلص من عجان ويظفر بساعات من النوم بين الساعة الأولى والخامسة من الصباح

كان فوزى وهو يدنى شفتيه من فنجان اللبن يقول لنفسه : أيوجد من هو أشقى منه ؟ عمل بلا انقطاع ولا راحة بأجر هزيل ! وكان يحس أن جنبه يكاد ينفجر

عن فلذات كبده تتطاير كرشاش الماء حتى تضرب الحائط ...

وإذا (بعثمان) يدنو منه ويضع أمامه علبة من الورق فيسأله عما تحوى . فينبهه أنها علبة (الكربونات) ألم يحدثه عن انتفاخ بطنه ؟ إن الكربونات يا سيدى أكيدة المفعول ... إنها تزيل الانتفاخ ...

وتصاعد غيظ فوزى . وقذف الخادم بفنجان اللبن الساخن ... ونهض عن المائدة . ما حاجته إلى اللبن المغلى ؟ إن جوفه يغلى ويقذف الحمم . ليست لديه الرغبة فى أن يبلل شفتيه المحترقتين بما يزيد حرقتهما

وهو ينظف بالفرشاة طربوشه الذى حال لونه من كثرة التجوال تحت الشمس المحرقة ، أسف كثيراً لما أصاب خادمه ... ماذا جنى ؟ إنه لم يكن يقصد النكتة ... من كان يدريه أن الانتفاخ ليس سببه الأكل وإنما سببه الغيظ ؟ إن الخواجه عجان هو الأحق بهذا السائل الحار يسقط فوق رأسه الأصلع

ومر وهو خارج بعثمان ، فمسح بيده على قفاه مصالحاً : « متزعلش . حقك علىّ . أصلى زهقان من نفسى يا عثمان ! ... »

فأزاح الابتسام شفتى الخادم الأمين عن أسنانه البيضاء :

— أبداً ياسيدى ، أنا مش زعلان ده أنا اترقيت . زمان كنت بتضربنى بقزازة الحبر ، ودلوقت باللبن الحليب . مين يطول ده ؟ أمى داعيه لى ... كانت الله يرحمها دايماً تقول : « روح يا عثمان ربنا يبيض وشك ... » ربنا استجاب دعاها . بس ياسيدى اعمل معروف تانى مرة لما تحب تضربنى باللبن تطوّل بالك لما يبرد شويه ! ..

وخرج فوزى وقد أضاء قلبه قليلاً تصافيه مع خادمه

* * *

ووجد فوزى نفسه فى السيارة الكبيرة الذاهبة إلى قرية «السلاهيب» . وأخذ يجيل عينيه فى الجالسين : وهم فعلة ذاهبون مع المقاول لحفر ترعة ، وبعض نسوة زرن أولياء الله الصالحين فى المدينة ثم بكرن عائدات إلى قراهن وفى سلالهن أقماع السكر وكساوى الشيت والحلاوة الطحينية ... وهؤلاء الحزينات الساهمات لابد أنهن كن بالأمس فى المحكمة الشرعية سمعاً وراء حكم نفقة أو تفرقة . وهؤلاء المصبوغات الكفوف بالحناء كن فى المدينة يخترن جهاز عروس ؛ وإلا فما هذا الصندوق المدهون باللون الأحمر الصارخ ؟ وما هذه المرآة ذات الإطار البديع من الخشب الذى تصنع منه صناديق السكر والصابون ؟

وضحك فوزى فى نفسه ، فإن الخواجة عجان لم ينس أن يوصيه بالتحدث إلى المسافرين معه عن التأمين وفوائده ومتانة الشركة ومنشآتها فى بودابست وبلغراد وروما ! ...

وكانت السيارة تمضى فى طريق ردىء مملوء بالأخاديد . فكانت ترتفع وتنخفض ومعها معدة الفتى وأمعاؤه وكبده ... ورائحة البنزين والشحم المحترق تنبعث من آلاتها الرديئة مختلطة بمثير الطريق تنفذ إلى رئتيه . وشمس الصيف قد أخذت تتسلق السماء وتضرب صاج السيارة وتحيل داخلها شعلة من جحيم

عليه أن يحتمل كل هذا ساعات أخرى . وللخواجة أن يستمتع براحة يوم الأحد . إنه يدرى ماذا يصنع عجان يوم الأحد . إنه يتحرر من (بذلته)

ويجلس فى (براندة) منزله بسرواله الدبلان الفضفاض الذى صاحبه من دمشق . يجلس متنمراً ينتظر قدوم صينية « الكبيبة » من الفرن ، وزجاجة الزبيب الزحلاوى جالسة إلى جواره ، وحوله ابنه الخائب « نايف » الذى لم يفلح فى المدارس قط . وبنته « نجفة » التى ورثت عنه بدانته المفرطة ودمه الثقيل الذى ينفر منها الخاطبين؛ وزوجه... وزوجه « سارة » المهزولة المعروقة التى لم يزر السرور وجهها قط ، العجوز المتصابية التى تزيل الشعر عن حاجبيها وتتركه فوق شفتها العليا وتحت إبطيها ، وتصر مع ذلك على لبس (السواريه) ! ... تلك المرأة التى لم يفهم حديثها قط ، وإن كان يفهم من نظراتها القاسية أنها تستكثر عليه راتبه !

أيخطر ببال هؤلاء الناس السعداء، أتخطر ببالهم رائحة البنزين ، ورائحة القروبين ، ورائحة روث البهائم الذى يجف ويثور مع التراب ؟ أكانت تنطبق الأرض على السماء لو أجلت هذه الرحلة إلى يوم الإثنين ؟ لكن فلتكن مشيئة الخواجة «عجان» ما دام هو الذى يستطيع أن يرفع المرتب ويخفضه ويعطيه ويمنعه .

وأغمض الفتى عينيه . فإنه سيفتحهما عندما يصل على قذى كثير : العثير المتطاير تحت حوافر السائمة ، والأطفال الذين يرضع الذباب الأوساخ المتراكمة على وجوههم ، وقهوة القرية يجلس عليها آدميون صفر الوجوه يشربون جميعاً من « جوزة » واحدة ، وأمامهم أقداح بها سائل أسود يسمونه الشاى ... وسيفتحها أيضاً على سحنة أخينا الذى يريد أن يؤمن على حياته.

وقد يكون جلفاً وقد يكون هازلاً . وقد تكون حياته لا تساوى شيئاً لأنه بقية من بقايا الأفيون (والمنزول) والأنكلستوما والصفراء . وما ابنته هذه التى تريد أن تؤمن على حياتها ! فلاحة لا تعرف كيف تخط الألف ! تظن أن الحياة تحد شمالاً بترعة الناحية ، وجنوباً بمقام سيدى « عز الرجال » حامى القرية وشرقاً بنقطة البوليس مقر الحاكم ذى الدبورتين، وغرباً بالبندر أو عاصمة المديرية حيث محكمة الجنايات التى يرسل إليها الأشقياء الذين يحرقون زراعات القمح ويقلعون القطن ويسممون المواشى ويزهقون الأرواح ...

ونزل فوزى أفندى قرية السلاهيب ، وأخذ الناس يختفون من طريقه ! فإن فى يده حافظة مملوءة بالأوراق ، فإن لم يكن محضر محكمة مختلطة يحمل ضمن أوراقه هذه تنبيهاً بنزع الملكية فهو على الأقل محضر محكمة أهلية لديه أوامر بالحجز التحفظى ، أو بيع المحصول من أجل كمبيالة تدخلها فوائد ربوية محررة لأمر وإذن أحد تجار القماش من كسوة الشتاء أو أحد تجار السماد من أجل حياة الأرض ! وهو على أى الحالين يريد مرشداً يدله على المدين المسكين . ومن يرضى أن يكون هذا النذير المشؤوم ؟!

***

ووصل أخيراً إلى دار الشيخ « توكل » فإذا بها دار نائية عن القرية مبنية فى وسط حقول صاحبها ، جميلة رائقة المنظر وإن لم تكن ذات شرفات ، فإن نوافذها الواسعة المطلة على بستان تمايل فيه أشجار النخيل مدهونة بلون أخضر لطيف لا يملؤه الغبار ، وسورها المزهر بالجير الأبيض تطل منه أوراق كرمة باسقة

وفتح الباب ... ولم يكن فوزى يتوقع قط أن يكون ملبى طرقاته هذا الذى رأى ! كان يتوقع أن يطالعه وجه فلاح يطل شعر صدره من خلال جلبابه المفتوح أو خادماً محزومة الوسط بحبل من التيل مبللة الثياب بالماء لأنها تدير (الطلمبة) أو بالعرق لأنها تجرش الفول على الرحى ، أو على الأكثر فتاة صغيرة بطرحة تخفى تحته منديلاً اسطمبولياً مشغولاً (بالأويه) ملوثة اليدين من (تلزيق الجلّة)

لم ير شيئاً من هذا ، وإنما رأى فتاة حضرية فى يدها كتاب وعلى فمها ابتسامة وعلى وجهها (تواليت) متقن ! ...

ولما علمت (الآنسة) ما يريد وضعت له كرسياً فى ظل تكعيبة العنب وأدارت كتفيها وسارت قليلاً ، ثم صعدت الدرجات القليلة الموصلة إلى باب الدار . فوجد فوزى الفرصة ليلتقط أنفاسه ويجفف عرقه ، ويغمر قوامها اللدن الرشيق بنظراته ، فإذا ثوبها الحريرى أنيق محكم التفصيل ينم قماشه الخفيف عن ظهر لا كـكل الظهور ...

وعادت تقول له : « لقد سألت عن أبى الآن بالتليفون، فقد سافر إلى المدينة هذا الصباح ؛ لكنى لم أجده حيث كنت أظن . واست أدرى إن كان فى وسعك أن تنتظر بضع ساعات ؟ ... »

فنظر الفتى فى ساعته ... أيظل ست ساعات فى السيارة ويأتى إلى هذا المكان السحيق ليظفر بهذه النتيجة السارة ؟ أيعود إلى الخواجة عجان بخفى حنين ؟ إنه إن فعل لغضب ونفر وقذف من عينيه الشرر ، ولرماه بأنه ركب السيارة ثم نزل على مسافة خمس دقائق من المدينة فى أقرب حقل من حقول البطيخ حيث أكل واحدة مثلجة بندى الليل ثم تجشأ ثم استأنف الرقاد تحت فىء جميزة أو شجرة توت . وإن زعمه الذهاب إلى السلاهيب كذبة سمجة جزاؤها أيام خمسة تخصم من مرتبه ...

وتفصّد جبينه عرقاً من هول ما يتوقع . وسأل الفتاة كوب ماء

فصفقت « سماح » فى طلب الماء . وجاءت خادم صغيرة بقلة خيل إليه أنها تضحك من فرط ما هى دقيقة ورقيقة ونظيفة ، وشرب ، وملأت « سماح » الكوب مرة أخرى وأخذت تشرب . وكان الماء البارد العذب قد رطب جوفه وخفف من خفقان قلبه اللاهث الذى أذهله حسن الفتاة ، فوجد الجرأة لينظر إلى نحرها الناصع وهى ترشف الماء . لكأنه يراه وهو ينسكب من فمها الصغير ويترقرق فى هذه القصبة التى إن كانت عند الناس بلعوماً فهى عندها قطعة من البلور الشفيف ! ...

ولم يفتها تملق عينيه رقبتها . لطالما رأت الناس يخملقون فى هذه الرقبة . لقد كانت مرة فى حفلة ساهرة فى القاهرة حيث تقيم ، فجاءها أستاذ معمم من أساتذة آخر الزمن ، وكان قد شرب أكثر مما يجب ، وكان يمسك فى يده اليمنى كأساً من الوسكى وفى يده اليسرى عمامته ؛ وكان شعره مصففاً عند الحلاق ومعطراً . جاءها هذا الشيخ وهمس فى أذنها قائلاً : يا غانية ... إن رقبتك تشبه « كوزاً » من الفضة ... ذكرت هذا ... وذكرت أنهم حدثوها أنه شيخ فريد فى بابه وأنهم يسمونه « الشيخ موريس شيفالييه » فضحكت . وكانت خلية الفؤاد تهفو للضحك

وأحبت أن تعلل ضحكها فسألته : « إنك تنظر

إلىّ كأنك رأيتنى من قبل ، وكأنك تفتش فى ذاكرتك عن المناسبة التى رأيتنى فيها . . . أنكون قد تقابلنا فى القاهرة ؟ . . . »

فعلم أنها فتاة ماكرة وأنه (ملبوخ لا محالة) وبحث عن صوته فلم يجده . وأخيراً استطاع أن يقول : « كنت أودّ أن أقابل والدك . . . »

ولم تتركه يتم كلامه وقالت : « قلت لك إنك تستطيع أن تنتظره . تكون مشكوراً لو بقيت فإنى لا أجد من أحادثه فى القرية ، ووالدتى مريضة بالنقرس لا تفارق سريرها ، ولا يفارق النعاس جفنيها . وهذه الخادم الصغيرة قد سمعت كل أغانيها ومواويلها وحفظتها وسئمتها . أما خادماتنا الكبيرات فإن حديثهن يفزعنى فإنهن لا يحسن الكلام إلا عن السحر وعن الجنية التى تسكن ساقيتنا البحرية ، والمارد الذى يتجول على شطى الترعة طول الليل ، وعويس شيخ المنسر . أما هذا الكلب « حاتم » المربوط عند الباب فبالرغم من أنه يحسن السهر فى الليل ويجيد استقبال اللصوص ولا يعبأ بالجنية ولا المارد ولا الشقى عويس ، إلا أنه بكل أسف لا يجيد محادثة السيدات ولا يحترمهن كثيراً . وكأن أثوابى لا تعجبه أو لا تريح أعصابه فإنه يحب أن ينالها بأسنانه . إنه كلب فلاح . . . أوه نسيت أنك ضيفى . . . يا زهرة كوب شربات . . . »

ولم تجب الخادم فانطلقت إلى الداخل تعدو ؛ ووجد فوزى الفرصة مرة أخرى ليملأ عينيه من قوامها اللدن الممشوق . وارتفع ثوبها عن ساقيها قليلاً وهى تقفز الدرجات ، فأحس أن ريقه يجف وينضب من حلقه ويصعب ابتلاعه ، وأن ضربات مطرقة تتردد فى صدره ، وأن مقدمات إغماء تتمشى فى جسده

لما أتت الخادمة بالشربات أخذ يزدردها بصعوبة وهو يحس أن معدته قد أغلقت وأنه لن يجوع أو يعطش فيما بعد بل يكفيه للرى والشبع أن ينظر إلى وجه « سماح »

وجعلت كرسيها أمام كرسيه وأخذت تحادثه ونظر فى ساعته ، ففطن إلى أنه بقى كثيراً ، وأن الزمن لم يمر فى حياته من قبل بهذه السرعة ، وقام يستأذن ، وقالت له عند الباب : « أترك الأوراق التى تريد أن تتركها وتعال يوم الخميس فتجد أبى ونبتّ فى الأمر . أأنت آت ؟ »

وعادت إلى كرسيها ثانية ، وكان كرسياً طويلاً من القماش فتمددت فيه ، وفتحت كتابها الذى نسيته وحاولت أن تقرأ فلم تفلح ، وألقت كتابها على صدرها وأثرت أن تحلم . . .

أخذت أفكارها تجرى وراء مندوب شركة التأمين على الحياة . سيسير طويلاً تحت الشمس المحرقة سيراً حثيثاً حتى يدرك السيارة الكبيرة العائدة إلى المدينة ، وحينما يعود إلى أن يذهب ! أهو حقاً أعزب كما فهمت منه ؟ ! وأين يسهر ؟ ! وكيف يعيش ؟ !

لقد تحدثت إليه ومست هذه المسائل مساً خفيفاً وحكت له عن حياتها فى القاهرة ، لكنها لم تعرف منه أكثر من أنه فتى متعب صارم لا تعرف البهجة طريقاً إلى قلبه . إن يديه اليابستين الثابتتين يبدو عليهما أنهما مستا الأشواك كثيراً ولم تمسا الورود قط . لقد ربيت فى القاهرة فى بيت أخيها الطبيب وتعلمت فى « المير دى ديو » ومارست حياة اجتماعية كاملة باشتراك الجنسين من الوسط ولقيت شباباً كثيرين يعدون من الصفوة كما يعرف

الأطفال فى أشبار من الماء ، كان هؤلاء يغرقون تحت نظراتها ويرتبكون ويفقدون ذلاقتهم إذ يجردهم حسنها مما يزعمون لأنفسهم من تأثير وشخصية . كم أجرحت من انتصارات وعبثت بقلوب . كانت لذتها فى الحياة أن تعبث بالرجال ، ولم تعدم قط رجلاً تضحك منه ، ولم تكن تلقى عناء فى ذلك . كان يكفى أن تلقى نظراتها فى عينى رجل وسرعان ما يبدو أمامها لاهثاً مبهور الأنفاس. وسرعان ما ترى الرماد يرين على جذوة الشجاعة والذكاء المتقدة فى عينيه وتتبدل نظراته إلى نظرات غبية بليدة بلهاء ترجو وتتوسل وتسلم القياد ...

لكن هذا الفتى الفقير! لقد جمعت كل أنوثتها الفاتكة فى عينيها وعرضتها عليه ، لكن عينيه لم تطرفا ، ووجهه لم يمتقع وكبرياؤه لم تفارقه ! أهو فتى فظ ؟! لكن عينيه المتكبرتين فيهما نعومة ورفق وخيال ، وصوته القوى فيه حلاوة وليونة ونغمة محزونة ، ووجهه الجميل النبيل ينبىء عن جرأة قلب وشهامة نفس ..!

وإذا ذكرت وجهه علت فمها ابتسامة . يجب أن يذل هذا الوجه لها ويتصبب لهفة وهياماً وتعنو جبهته المرتفعة وتجرى نظراته تحت قدميها ! . . . يجب أن تضحك منه كما ضحكت من إخوان له من قبل .

لقد طلبت إليه أن يأتى يوم الخميس وهى تبيّت فى نفسها أموراً ثلاثة : فإنها تعلم أن أباها ذاهب إلى القاهرة يوم الخميس ، وأنها ستعدل عن إلحاحها فى الذهاب معه مفضلة البقاء إلى جوار أمها المريضة، ولن تقول له إن مندوب شركة التأمين آت .

أكانت تلك الإغفاءة الموشاة بالأحلام التى أخذتها وهى فى كرسيها طويلة أم قصيرة ؟ ... لقد استيقظت على نباح حاتم ، فإذا بالشمس قد أشاحت عن القرية مسلمة إياها إلى مسائها الصامت الراكد الحزين . لقد قامت إلى سريرها لتكمل ما عليها من نعاس وأحلام تملأها صورة مندوب شركة التأمين على الحياة

* * *

فى منتصف تلك الليلة كان فوزى جالساً فى حانة من حانات المدينة وكأسه أمامه ملآنة ينظر إليها دون أن تمسها شفتاه كأنه يذيب فيها أفكاره وهمومه. لقد ركب معه من (السلاهيب) صديق قديم عزيز من أصدقاء المدرسة لم يلقه منذ بعيد وأنبأه هذا الصديق أنه أصبح وارثاً ، وأن ضيعته فى القرية المجاورة ... وأخذ فوزى يحدثه عما أتى به إلى هذه الناحية ، وأخذ يطرى جمال ابنة الشيخ (توكل) إطراء شديداً وصديقه يصغى له مبتسما ثم ينبئه أن الشيخ توكل عمه، وأن (سماحاً) خطيبته منذ الطفولة، ويفضى إليه بما يغيظه من هذه الفتاة التى أفقدتها القاهرة رزانتها وأفسدت خيالها الذى يصبو لحياة العاصمة . ومن يدرى لعل عدم ميلها إليه يرجع إلى أن قلبها معلق هناك ... قد تكون نسيت حب ابن عمها الشديد لها ، وداست تقاليد الأسرة التى تحتم زواج بناتها من بنيها حتى لا تتمزق الأرض التى ظلت من قديم وحدة لا تتجزأ ولا تدخلها قدم غريب

فلا يجوز أن يفكر فوزى فى سماح وقد خطبتها التقاليد لصديقه القديم « مصطفى » ورفعتها مائة فدان ترثها ، درجات عدة عن الحضيض الذى تثوى فيه الجنيهات الستة التى يتقاضاها كل شهر ...

فما لعين سماح تتبعانه ؟ إنه لم يخلفهما فى القرية .

وإنما هما معه تسبقانه أينما ذهب وتنظران إليه أينما ولى وجهه بكل جمالها وسحرها . ماذا تكن له هاتان العينان ؟ وما ذا يرافق جمالها ويذوب من سوادها العميق ؟ أهو ابتسام أم سخرية أم حنان أم إعجاب أم كبرياء ؟ أما من خلاص من هاتين العينين !.. إن كان لا مفر منهما فماذا تعنى بهذه النظرات ! أهى له أم عليه ؟ ..

أكانت جادة فى سؤالها إياه إن كان قد رآها من قبل ؟ أرآها حقاً ! أين يا ترى ؟ وأخذ يحث ذاكرته حتى هدته إلى أنه رآها فى أحلامه . ليست صورتها إلا الصورة التى صاغها خياله من أمانيه . حقاً لقد رآها من قبل ...

وتسلل إلى أذنيه من جديد صوتها وهى تكلمه عند الباب : « تعال يوم الخميس ؟ تعال ! أأنت آت ؟ » لكأن نغمة خاصة تشعشع هذه الكلمات وتسقيها عذوبة تميزها عن سائر ما تحدثت به إليه . لكأنها تعنى أنها بانتظاره فى شوق !.. ثم كان يزجر خياله ويرى لهب الحقيقة يلعق هذه الأمانى بألسنة ساخرة من النار

كان يعتبر الحانة فيما سلف دار الإسعاف والعلاج فيها يخمد ألمه ، ويسكر ما يصرخ فى كبده من جراح . فما له الآن لا يكترث بكأسه ولا يشربها ويؤثر أن يفكر ويتأمل ويتعذب ؟ لكأنه يخشى أن تراه « سماحاً » وقد ثمل فتحتقره وتضحك منه وهو يشعل سيجارة من الناحية التى كان ينبغى أن يضعها فى فمه ، ويضع زر طربوشه فى مقدمة رأسه مثل هؤلاء السكارى الذين « يدندنون » زاعمين أنهم يغنون

وغادر فوزى مجلسه والكأس لم تمس شفتيه !

* * *

لم يعترض فوزى عند ما طلب إليه الخواجه عجان ليلة الخميس أن يذهب إلى السلاهيب فى الصباح لإتمام الصفقة . وانصرف عجان إلى بيته وهو معجب بقدرته على إملاء أوامره على مرءوسيه ، وراح يسدل سترته على كرشه برفق وحنان متمنياً لنفسه رعاية الله وحفظه فإنه من غير شك أكفأ وكيل لدى شركة التأمين ...

فهم فوزى لما أبرقت أسارير خادمه عند ما علم أنه ذاهب إلى السلاهيب ولا يعود عند الظهر — أن عثمانا يحب ، وفى استطاعته أن يغلق الشقة ويذهب إلى محبوبته (نظيرة) فى طرف البلد ... حتى قلوب الخدم تخفق للحسن ... هذه القلوب التى أنهكها الانحناء لمسح (البلاط) والتسلق لتنظيف السقف ! أهو الهيام الذى يذيع التطلق والابتسام فى قسمات عثمان ؟ أهى القبل العذبة من فم (نظيرة) هى التى تجلو أسنانه فتسفر عن هذه الضحكة المتألقة البيضاء ؟ ليته كان الخادم السعيد ولم يكن السيد المنكود ! لو أن (سماحاً) له كما أن (نظيرة) لعثمان ! لكن أى خيال بعيد لو علم الشيخ توكل أن هذا الموظف الحقير يفكر فى ابنته لأطلق عليه كلبه (حاتم) ينزع عنه بأنيابه هذه السترة التى خرج بها من الدنيا ... ما له وهذه الأمانى الجوفاء والأحلام الضائعة ؟ ليس الغرام فى كل صورة إلا حماقة أبدية لم تنعق فى رأس إنسان إلا أوردته موارد الهلكة والبوار

ظل يدير هذه الخواطر فى رأسه والسيارة تطوى به الطريق إلى السلاهيب . لم يكن باله هذه المرة إلى السيارة ترتفع وتنخفض وتخض أمعاءه وكبده . ولقد استحالت نظرته الشزراء إلى وجوه الفلاحين إلى نظرة حنون مشفقة صافية ... وهو

لا يغمض عينيه اتقاء الغبار ، وإنما هو يغمضهما ليحلم ويغرق فى خياله كل الكائنات بنظرة حب شاملة . حتى (الجوزة) التى يكره أن يراها تمر بأفواه كل الجالسين ليست فى رأيه إلا مزمار الخيال يقبله كل رجل قبلة تسكر وتخدر . وليس حلاق القرية إلا فيلسوفاً « محلياً » لا أخف من يده فى إجراء الموسى . أما الأطفال القذرون فليسوا إلا ملائكة متنكرين فى أسمال . إنها قطعة صابون تعيد إليهم صباحة وجوههم الحنطية التى ذهّبتها الشمس .... إن كل شىء جميل ... فإنه يرى من وراء كل شىء ابتسامة سماح المتخطرة على شفتيها المختالة فى وجنتيها الراقصة فى عينيها تسبغ على الوجود جمالاً وفتنة وضياء . حتى « مجاناً » الذى يحمل له فى قلبه بغضاً لا حد له أصبح مرضياً عنه . فليست لكرشه الهائل وحقيبة الدهن المتدلية تحت ذقنه سماجتها التقليدية ... الآن يلحظ فيها فوزى شيئاً من الظرف والفكاهة ، وأن الصحة والعافية المكتظة فى وجنتى ابنته تحفة تستحق التحية . حتى امرأته سارة يرضى أن يقول لها فى خياله : « إذهبى يا امرأة مغفورة لك خطاياك اللفظية بسبب إتقانك (للكبيبة)

* * *

قالت له سماح وهى تفتح الباب : « أوه ، لقد نسيت أنك آت يوم الخميس ... لقد سافر والدى اليوم ... هل لك فى كوبة من (الشربات) ... »

ودخلت تجرى ، وأخذ يفكر وهو يحدق فى ساقيها : أحقاً نسيت أن تخبر أباها ؟ ! أحقاً نسيت أنه آت ؟ أهو كم مهمل إلى هذا الحد ؟ أم أن هذه الفتاة التى تتم حركاتها عن إتقانها (للتنس) قد اشتاقت إلى اللعبة وهى فى الريف فأرادت أن تجعل منه كرة تلعب بها وتلهو

وجلست إزاءه فى كرسيها الطويل وأراحت رأسها على ساعديها المتشابكتين فأخذ الذراعان العاريتان المحيطان بشعرها الفاحم يتكلمان عن فتنة مضنية مذيبة ، ويكونان مع الساعدين المتعاقدتين إطاراً ساحراً لصورة ساحرة من فن سحرى لا يعرفه هذا العالم ! . . .

لقد جلست هذه الجلسة ذات مرة أمام فتى قاهرى فسقط عند ركبتيها هامساً : « الرحمة فوق العدل » . فما لهذا الشاب لا يريم من مكانه ولا يتململ ولا يعبر وجهه عن الهزيمة بل يظل ساكناً كأنه قد من ثلج

وتنهدت بعمق وهى تتثاءب فقام صدرها الناهد ثم رقد من تحت ثوبها المشجر ثم قعد كأنه كوكبة من الأزهار تنحنى مع النسيم ثم تقوم

قالت له : « لعل من المؤلم لك أن تأتى مرة ثالثة ... » وتريثت عن تتمة الحديث لعله يقاطعها قائلاً : إن من يراها لا يعرف التعب أو الألم لكنه لم يفعل . فأحنقها هذا وقالت له : « أترك العقد وستجده فى المرة الآتية موقعاً عليه . إن أبى لا ينقض لى رأياً » ... فترك العقد واستأذن للانصراف ومضى ...

ووجدت سماح نفسها وحيدة مرة أخرى وعقد الحزن والتفكير ما بين حاجبيها . لقد انتهى اللقاء الذى مهدت له وظلت تحلم به . ها هو رجل لا يطيق الجلوس مع آنسة جميلة . كانت تظن أنه سيسقط من إغرائها فى بئر ، وأنها ستضحك منه كثيراً هى ولداتها عند ما تعود إلى القاهرة وتقص عليهن قصة (آخر تنفيل) ؛ فقد كانت ترى أن كل الشبان مغفلون يمبشبهم . والآن تتواضع فى مقدراتها ويكفيها

منه أن يعترف بجمالها ويشغف به . لقد رضيت أن لا تصنع به شيئاً لأنها على ما يبدو لا تستطيع أن تصنع به شيئاً

أما هو فقد أدهشته إرادته التى دفعت به إلى الخارج وأعجبته . فقد أحس فى أعماقه وهو ينظر إلى ذراعيها وصدرها بعواء ذئب جائع . ذئب كاد يفلت منه وينقض على سماح وليكن ما يكون . فليقاصها على هذه النظرات التى ترشق بها فؤاده . لقد فهم وأدرك فى اللحظة الحاسمة أن هذا الحب لا جدوى منه وأنه لن ينتهى إلا إلى ملهاة إن كانت سماح تريد أن تسخر منه، وإلى مأساة إن كانت جادة. أليس هياماً بلا أمل ؟ فى الطريق خاطب صديق ومئات من الأفدنة وأب يذود عن التقاليد . . . وهو ما سلامته ! وظيفة بستة جنيهات !..

عندما عاد فى الخميس التالى كان السهاد والصراع مع الأمانى قد أحاله شخصاً ذا إرادة جبارة تستمد قواها من اليأس

وجلس قليلاً ، ثم طلب العقد فجاءت له بالعقد والقسط الأول لعل هذا يرضيه ويسره . لكنه طواهما فى جيبه واستأذن ومضى ... وهى تلح عليه أن يبقى .

ووجدت نفسها وحيدة مرة أخرى . لقد جربت معه نظراتها وتهدداتها ، ودنت منه لتسكره بعطرها، ورفعت إلى وجهه شفتين تختلج عليهما قبلة حائرة متلهفة طالبة إليه أن يبقى . فلم يصنع ولم يفكر فى اقتطاف تلك القبلة التى نضجت وأوشكت أن تسقط على كتفه .

أى فتى هذا ! ... إنه يملك الشجاعة والوسامة والفضيلة . لم تر من قبل هذه القوى مجتمعة . رأت الشجاعة مع القحة، والوسامة مع التخنث، والفضيلة ثوباً للعاجزين . لم تكن عادلة يوم طمعت أن يذل لها، ولا يوم اكتفت باعترافه بحسنها وشغفه به .. إنها الآن تود لو يمكنها من أن تحبه وإنها لترضى أن تذل له ! ...

* * *

عادت سماح إلى القاهرة لكنها لم تجد لمسرات المدينة طعماً . ولم تعن بما يحوم حولها من فتيان ، ولم تجب الدعوات إلى الحفلات، ولم تصغ لتوسلات طاقات الزهر النضير التى تهدى إليها ...

كانت تؤثر أن تذهب فى اليوم الثالث من كل شهر إلى القرية لأنها كانت تعلم أن فوزى يأتى ليأخذ قسط التأمين، وحاولت أن تفتح قلبه الحصين غير أنها لم تظفر إلا بصداقته .

وقالت له مرة وهى تصطاد السمك من الغدير المجاور للمنزل : « انظر ! ما أجمل الماء الرائق . إن الإنسان يستطيع أن يرى فيه وجهه ؟ » فقال : « لعله أول نوع من المرايا اهتدى إليه الإنسان » قالت : « أتظن أن الماء كان مرآة أمنا حواء ؟ » قال : « نعم » قالت : « إن هناك نوعاً أقدم من المرايا نعرفه نحن معشر النساء . يخيل إلى أن حواء أول ما رأت صورتها رأتها فى عينى آدم صدفة وهى تتأمل وجهه » قال ضاحكا : « حقاً قد تكون المرآة الأولى للمرأة الأولى » قالت : « وللمرأة الأخيرة . إن المرأة فى كل زمان ومكان تحب أن ترى صورتها فى عينى الرجل الذى تحبه لأنها إذ تنطبع على عينيه تنطبع على قلبه . ليتنى أرى صورتى فى عينيك كما أحس صورتك فى قلبى ! احدق فى عينى . أترى صورتك ؟ ... » قال : « إن عينيك مخضلتان بالدموع » قالت : « إن هذا النوع من المرايا يكون أشد إبانة حين يغسل بالدموع .

انظر . . . » وأدنت عينيها من عينيه بأهدابهما الطويلة ، فكأن إطار هذه المرآة سيوف مسلولة

وكان النسيم يغنى إذ ذاك لحناً خافتاً وانياً حالماً يقبل أهدابها . ورأى فوزى كأن على شفتى سماح أمواجا متلاطمة من القبل فلم يملك حواسه وهوى بفمه فى هذه الأمواج يسبح فيها ويعب منها . وجمعها بين ذراعيه ... لقد أفلت منه حبه الجارف ؛ وأحس أنه بحاجة لأن يضع فتاته بين جوانحه . . . ليت قطرات دمها تنزل ضيفة فى قطرات دمه ... ليت كيانها كله يدخل فى إهابه

لكن وجه الخاطب الحزين (مصطفى) مرّ فى خياله فجأة فبدا أمام نفسه كجندى انتصر فى كل المعارك واحتمل المكاره والمهالك والجراح . ثم خان فى اللحظة الأخيرة .. أجل .. فى اللحظة الأخيرة فإن أياماً سبعة قد بقيت على الزفاف ... وأفلت من ذراعى سماح ومضى يعدو ... إن التكفير الوحيد أن يحتجب عنها إلى الأبد

لكنه رآها فى الليل تقرع بابه، وعلم أنها آتية تعلنه أنها لن ترضى بالزواج كما هددته من قبل . وكان قد شرب كؤوساً فراراً من همه . وأوحت إليه هذه الكؤوس أن يبدو أمامها ثملاً جدا ويوهمها أن يخدعه امرأة ... حتى تكرهه ... لعل كرهها إياه يصرفها عنه ويصون لها مستقبلها

ودخلت عليه سابحة العينين فى الدموع وهرعت إلى صدره . لكنه دفعها عنه بغلظة وهو ينفخ فى وجهها نفساً مخموراً كريهاً . ثم استدار إلى باب مخدعه وتحدث وهو يغلقه إلى المرأة الموهومة النائمة فى سريره طالباً إليها أن تتدثر لئلا يؤذيها الهواء

وفرت سماح وهى تجهش بالبكاء . وتم زفافها بعد أيام .

فى ليلة الزفاف جلس فوزى فى الحان يفكر أمام كأس من الخمر : أتدرى سماح أنه ظلم نفسه من أجلها؟ أكان مخطئاً ؟ أكان مصيباً ؟ أجلب إليها الهناء أم الشقاء ؟ ليتها تخفف من مقتها له . ليتها تدرى أنه لم يكن منغمساً مع امرأة . هل قدر له أن يظل دنساً فى عينيها . إنها الآن بين ذراعى زوجها فهل ستذكر القبلة عند الغدير وتحن إلى الحبيب ؟ أقدّر عليها أن تتألق الدموع فى عينيها فى ليلة الزفاف ؟ أم أنها الآن قد نسيت جندى الهناء المجهول ؟ أتدرى أنه يحس الساعة إلى جانب العلة التى تفرى كبده علة جديدة تخرط قلبه ... لقد أقفرت الحانة من الشاربين فنهض ولم تمس شفتاه كأسه . ولما لفح جبهته هواء الطريق البارد سقطت من مقلتيه دمعتان تقولان : « يا سماح ! إنى برىء ... »

يوسف جوهر
المحامى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

قرش

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد